



أنسي الحاج

خواتم | 3

الهالة

شهود زور

التاريخ يبدأ الواقع ويستكملة الفكر. وغالباً ما يجرف الفكر الواقع. المؤرخون أسياد الذاكرة يتصرفون بها على قدر الطاقة وبحسب الميل. الذي ابتكر عبارة «المارونية السياسية» ليس مؤرخاً لكن عبارته دخلت التاريخ، ومثل كل العناوين باتت غلغلاً لمضامين مختلفة ومتناقضة. التاريخ سلطة في الثلجة يحركها الطبّاخون بحكم الضرورة. حين يُقال أمام حدث ضخم «ها نحن نعيش التاريخ وهو يُصنع!» يُقال من باب المبالغة. ولا مرّة يُصنع التاريخ أمامنا صناعته جذورها وراءنا تُستعمل فروعها أمامنا وعلى حطامنا، تستعاد فروعها وجذورها أو تُخترع أو تُزور. التاريخ بالنسبة إلى الحاضر، في السياسة خصوصاً، هو دائماً ذريعة. نهاجم الطائفية، لكن التاريخ هو أسوأ من الطائفية على صعيد الاستعمال الغرائزي لقتل الشعوب. استعادة الأمجاد ذريعة تاريخية. المدى الحيوي ذريعة تاريخية. التفوق العرقي ذريعة تاريخية. الاستعمار الثقافي ذريعة تاريخية. التمثيل بالغزاة «التاريخيين» ذريعة تاريخية. أرض الميعاد ذريعة تاريخية. الامبراطورية العربية والإسلامية ذريعة تاريخية. الحرب على الإرهاب ذريعة تاريخية. بطن التاريخ السياسي والعسكري لم يحبل إلا بالذرائع ومحطاته مجبولة بالدم. وحقائقه معظمها أكاذيب وشهوده شهود زور ولو صدّقوا.

الحرية والطغيان

الغزال يهرب أمام الصياد: الغزال أرقى من الصياد. الإنسان يهرب أمام الوحش: الإنسان أرقى من الوحش. الرحيم يلين أمام القاسي، والرحيم أفضل من القاسي، لكن الرحيم الذي لا يخطئ في المطلق بتراجعته يخطئ في النسبي، لأن القاسي يأخذ منه بالفضيلة ما لا يستحقّه بالعدل.

الحرّ أيضاً. الحرية، باسم نفسها، تتراجع أمام الطغيان، لأنها تقيس الخطى بنفسها، بأثمان نفسها، والطغيان لا يفقه ذلك. الحرية ارتدادية والطغيان توسعي. قد تمرّ الحرية بموجة انفلاش ثم تهدأ. الاتجاه فيها هو إلى المحافظة على ذاتها. لذلك تنكفئ وهي تحسب أنها استقرت ولن تتراجع.

على صعيد السلطة، يبقى الحكم ثابتاً ممسكاً بالرقاب ما دام يمارس نفسه كما لو أنه أول يوم. بل كما لو أنه لم يبدأ وما زال في طور التحفز. البراهين: أنظمة الحكم العربية.

على الصعيد الفردي نجد الشواهد في علاقاتنا

الشخصية والمهنية: الفاجر يأكل مال التاجر.

والتاجر مال المستهلك.

والمستهلك دم من تحته.

والرجل حق المرأة، وكلاهما حق الطفل، والطفل حق أخيه...

...وأخوه حق نفسه.

تكريم

تتوالى حفلات التكريم والدروع والدكتوراه الفخرية، وأخيراً إقامة التماثيل. مبادرات طيبة بقدر ما هي فارغة. لم نبارح بعد حقل المجاملة. الكاتب - مبدئياً - يقدم فكراً وقلماً، ومحيطه يشكره باستقبال المهنيين.

آخر المبادرات احتفاءً اتحاد الكُتاب بعشرات الأدباء أمواتاً وأحياء. التفاتة مشكورة من الأمين العام الجديد الذي لا ريب في حسن نيّته، لولا هذا «التكريم» بالجملة.

شخصياً نالني من الاهتمام أكثر ممّا أستحق. وأرجو مثله للآخرين: الدراسة والنقد. أن لنا أن ننقل من العادات الاجتماعية العابرة إلى الإثبات التاريخي الموثق للتراث اللبناني (بل العربي كله) حقبة إثر حقبة، ترسيخاً وشرحاً وتحليلاً ومقارنةً ونقداً وتقييماً، إلى النيش والتجميع والنشر وإعادة النشر، حيث جُمع العلم المختبري والأكاديمي إلى حسّ الكشف وهاجس التوغّل وواجب الإنارة، فنخرج من البداهة والارتجال والاعتباطية إلى المسؤولية الجليّة، ومن السطحية والإهمال والفئويّة والذاكرة السياحية إلى التعامل مع أدبنا تعاملًا جدياً حيث يستحق، على يد مَنْ يُقدّر ويستحق. وهكذا يتكوّن لنا تاريخ أدبي (وفني وفكري) نفتقر إليه، وبدونه تظل حياتنا الأدبية قفراً في البراري، ومقياس المقارنة مفقوداً، والمستقبل مغلقاً تبعاً لانغلاق الماضي.

الهالة

- من هو الصديق؟

- الذي تضايقه ويُطمئنك.

- هل هناك صديقة؟

- تلك التي بقيت رغم الحبّ الذي كان بينكما.

- ما هو الحبّ؟

- هو عندما تنظر إليها فيؤلمك جمالها.

- ألا يهبط التأثير بعد تكرار النظر؟

- الوجه المعشوق محاط بهالة سحرية والوجه المحاط

بهالة سحرية معشوق.

- من أين تنبع الهالة؟ من العينين؟

- من كبت قديم حوّله الشوق إلى شمس سجيّة في الأعماق.

لسبب مجهول

لو جلسنا نحصي عدد الذين أثروا في حياتنا تأثيراً مصيرياً فهل نجد مفاجآت، أم نكتشف أنّها كانت كلّها منطقيّات حتمية؟

سؤال خاطئ. أصحّ أن نبحث عن معنى آخر، فالمصادفات، مصيرية أم سطحية، ستبدو كلها، بعد الحصول، منطقيّة حتمية. الغريب يصبح مترابطاً عندما نستعرضه كشريط. الجلوس في مقعد الذاكرة يريك كم كانت لحظات هلعك ودهشتك ساذجة.

الأشياء كانت معدّة في غرفة التوزيع.

ومع هذا كلّ مرّة أول مرّة وكلّ مولود يُنشئ الحياة من جديد. والمعلوم يعود مجهولاً والمرسوم اكتشافاً.

ولكن، لسبب مجهول، يخامرنا ظنّ بأن الشخص الذي يترك فينا لقاؤنا به علامة، هذا الشخص ليس بمثل سذاجتنا ولا هو بريء تماماً. لا مذنب ولا متعمّد، إنّما فقط أكثر إمساكاً من الطرف الآخر بمقاليد اللعبة...

بعضهم أقرب من بعض إلى مصادر القدر.

بُعد، بُعد

بُعد، بُعد.

لا نرى وجوههم. نسمع، فقط. بُعد، بُعد. على حافة الغيبوبة. بلا أصوات بشرية. الموسيقى الغربية، المسماة كلاسيكية، يشوّها الصوت البشري. أصوات الأوبرا ضربية الموسيقى. الموسيقى العربية، المسماة شرقية، لا تُحتمل بدون صوت بشري. هناك الصوت يعرقلها، يذبحها، وهنا يخلق بها ويُتوجّها. هناك يغسلها اللحن وهنا تغسله.

لنعد إلى الموسيقى، الموسيقى وحدها، الأوركسترا الأوقيانوس، سفينة البيانو المحاطة بملائكة الكمنجات. هدير الآلهة الزرقاء، آلهة الهدفة والأهداب.

هناك ما يقتفي أثر الأشياء التي تذهب. لا أحد يملك شكله. الأشكال تملكها العينان. العينان تملكهما الذاكرة. الذاكرة يملكها فضاء لا نريد أن نعرفه. يكفيننا أن نتوكأ على كتفه الغائرة في الضباب.

هناك ما يقتفي أثر الأشياء التي تذهب. هل تُراهن؟ الأشياء التي ذهبت كانت أفضل ما فينا. الذهب هو الذي ذهب. الذهب يبقى. أمانة في عنق الضمير المستتر.